العقل والذوق

مقاربة لفهم أبعاد التداخل

بين العقيدة والفقه والتصوف عند عبد السلام الأسمر

د. خالد زَهْري*

استدل المتكلمون على مسائل التوحيد بأدلة عقلية كثيرة، وظفوا فيها علوما تخدم هذا الاستدلال، كعلم المنطق. بيد أن الإغراق في هذه الأدلة، جعل التوحيد أقرب إلى علوم العقل، منه إلى علوم النقل، وأفرغه من محتواه الروحي، وعَطَّلَه عن وظيفته الأساس، وهي إصلاح الجِنان، واللسان، والأركان. فكان التصوف علما قمينا بإعادة علم التوحيد إلى أصالته وبداهته، وبعث الفقه؛ بواقعيته ومستجداته؛ لتأخذ التجربة الصوفية مشروعيتها.

ومن أبرز من قام بهذا المشروع، الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري، الذي نجح في تحقيق التداخل بين العقيدة الأشعرية، والفقه المالكي، والتصوف الجنيدي، وجعل هذا التداخل من أهم الأركان، التي تنبني عليها طريقته، حيث نجد وظيفته ووصاياه مبنية على الجمع بين الأركان الثلاثة المذكورة.

وعليه، يكون لزاما علينا، عند تفصيل الكلام على هذه المسألة، الجواب عن أسئلة مهمة، منها:

- ما هي حدود التداخل بين العقيدة والفقه والتصوف عند الشيخ الأسمر؟
- كيف استطاع توظيف هذه العلوم في تجربته الروحية؟
- ما هي تجليات هذا التوظيف في رسائله ووصاياه؟

* جامعة الرباط، المغرب.

- كيف تفاعل العقل والذوق في مدرسته الصوفية؟
- ما هي أبرز معالم الجلال والجمال في طريقته الصوفية؟
- ما هي معالم الإصلاح الاجتماعي في مشروعه العلمي والروحي؟

هـذه الأسـئلة، وغيرهـا كـثير، سـيتولى الـبحث الإجابـة عنها بتفصيل، من خلال الـبحث عـن الأسـس النظـرية والروحية، التي بنى عليها الشيخ الأسمر منظومته الفكرية، ونسج عليها تجربته الصوفية.

كما أن البحث لن يخلو من الإشارة إلى المصادر المعرفية الصوفية، التي أسهمت في تـشكيل الشخـصية العلمـية والـروحية والإصـلاحية للشيخ الأسمر، مثل أبي الحسن الشاذلي، وأحمد زروق، وابن الفارض، والشيخ الأكبر، إلخ.

ثـم أقـول: ممـا تميـز به مشروع عبد السلام الأسمر، أنه كان يجسد هذا التداخل علمـا وعمـلا. أمـا عمـلا، فقـد كـان يأمر مريديه وأتباعه بعدم التقليد في أصول الدين، معتـبرا هـذا التقلـيد حائلا دون تحقيق مقام المعرفة، وكان من أكبر المناصرين لمذهب أهل السنة والجماعة. هذا على مستوى التوحيد.

وأمـا علـى مـستوى الفقـه، فقد كان للمذهب الفقهي الذي يعتنقه؛ وهو المذهب المالكي؛ حيوية داخل طريقته. ومن أهم ما كان يأمر به أتباعه، في مقام العمل بالأحكام الفقهـية، العمل بمقتضاها على ضوء السنة النبوية الكريمة. مما يدل على أنه كان مالكي المـذهب، بـدون تقلـيد، أي أنـه كـان متبعا لمالك بن أنس ﷺ، لا مقلدا، فيما يمكن أن نعتـبره فهمـا عملـيا لما قاله الإمام مالك: « كلنا يؤخذ من كلامه ويرد، إلا صاحب هذا القبر »، وأشار بأصبعه إلى قبر رسول الله ﷺ.

وأمـا علـى مـستوى التـصوف، فقـد كـان عـبد الـسلام الأسمر من أبرز الممثلين للـتوجه الأخلاقي في تصوف القرن العاشر، حيث اجتهد في إخراجه من القالب الطُّرُقي المتحجـر، الـذي طـبع تـصوف هـذه المـرحلة، وأعاده إلى أصالته كما كانت عند شيخ شيوخ الصوفية أبي القاسم الجنيد ﷺ.

وأما علما، فقد كانت أوراده وأحزابه معبِّرة بوضوح عن هذا التداخل، كما سنرى، وكـان يحقـق هـذا الـتداخل في برنامجه التعليمي أيضا. فقد كان بعد فراغه من الوظيفة، والأحـزاب، ودلائـل الخـيرات، وأحزابه الأربعة، وختم القرآن، « يقرئ درسا في التوحيد إلى أن يـصير الظهـر. وبعـد صـلاة الظهر، يقرئ (المختصر) و(الرسالة)، إلى أن يصلي

العـصر. وبعـد ذلك، يقرئ (الحِكَم) إلى صلاة المغرب. ثم يقرئ النحو والمعقول، إلى توسط العشاء»[1].

والمقـصود مـن (المختـصر)، مختـصر الـشيخ خلـيل في الفقـه المالكـي، ومـن (الرسـالة) رسـالة ابـن أبـي زيـد القيرواني في الفقه المالكي أيضا. كما أن المقصود من (الحكـم) حكـم ابن عطاء الله السكندري، الذي يعتبر من أبرز ممثلي التصوف الأخلاقي والعملـي كمـا نَظَّـرَ لـه أسـاطين الممارسة الأخلاقية الإسلامية، وعلى رأسهم أبو القاسم الجنيد.

ومـن أبـرز مظاهـر الـتداخل بين الفقه والتصوف، أن الأسمر كان يؤصل لمبادئ طـريقته مـن الكـتاب والـسنة، بمـنهج علماء أصول الفقه، من ذلك تأصيله لأخذ المريد للعهـد مـن الـشيخ، فقـد قـال: «واعلمـوا أن أخذ العهد، له أصل في الشرع العزيز، قال تعـــالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]»[2].

ويؤصـل لمـشروعية الممارسـات الـصوفية مـن كـتب الفقـه، من قبيل (مختصر البوسعيدي لأحكام الإمام البرزلي)[3]، و(البرزلي في الرسالة)[4]، حين كلامه على تقبيل اليد، والمصافحة والمعانقة[5].

ولهـذا ألـف عـبد الـسلام الأسمـر في العلوم الثلاثة المذكورة، حيث يذكر محمد مخلـوف في (مـواهب الـرحيم في مـناقب مـولانا الـشيخ سيدي عبد السلام ابن سليم)، وكـريم الـدين البرمونـي في (روضـة الأزهـار ومنـية الـسادات الأبـرار في بعـض مناقب صـاحب الطـار)، أنـه ألـف رسائل كثيرة، منها رسائل في معرفة ما يجب، وما يستحيل،

1- مواهب الرحيم في مناقب مولانا الشيخ سيدي عبد السلام ابن سليم لمحمد بن محمد بن عمر مخلوف وهو (كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر ﷺ) لمؤلفه كريم الدين البرموني، طبع بهامشه الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية لأبي يزيد العياشي، تونس، 1325، ص. 308.

2- مواهب الرحيم، ص. 306.

3- المصدر نفسه، ص. 306.

4- المصدر نفسه، ص. 307.

5- المصدر نفسه، ص. 306 307.

وما يجوز في حق الله تعالى، وحق الأنبياء والملائكة. فقد ذكرا، أن له « إحدى عشرة نصيحة من كلامه، مجموعة فيما يزيد على الثمانية كراريس »[6]، ووصفا مضمونها بأن « محصل جميعها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، واجتناب ما فيه شبهة إلا واحدة، وهي التي بعثها لأصحابه بجبل غريان، تعرض فيها لما يجب في حق الله عز وجل، وفي حق رسله[7]عليهم الصلاة والسلام، وفي حق الملائكة[8]. وجميعها يدل على علو مرتبته رضي الله عنه في العلوم الظاهرة، فضلا عن الباطنة »[9].

وتضمنت رسائله الكبرى والصغرى نصائح من صميم المعرفة التوحيدية. كما يلحَظ، في رسائله، تداخل عميق بين الفقه والتصوف، خاصة عندما يجتهد في الكشف عن أسرار بعض الأحكام الشرعية وعللها على ضوء (علم المقاصد).

ومما قاله في (الوصية الصغرى): « وعليكم بتعلم العلم الواجب عليكم، الذي يقربكم من ربكم، مثل التوحيد، والآداب الشرعية، وما تصححون عبادتكم به، من الطهارة، والصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وعلم الأحكام، لمن احتاج إليه منكم. ولا تفعلوا فعلا، حتى تعلموا حكم الله فيه. فإن لم تعرفوا، فاسألوا العلماء التابعين سنة النبي ﷺ، وهم العاملون بعلمهم. وإياكم أن تسألوا الجهال، وتقتدوا بهم، فتكونوا مثلهم. وعليكم بمحبة أهل العلم، ومزاحمتهم، والمشي معهم، واعتقاد الخير فيهم »[10].

ويبدو أن هذا البعد التعليمي، ترك أثره الواضح، لدى أتباعه، حتى إن هذا البعد كان حاضرا في بعض مرثيات مريديه، بعد وفاته، منها مرثية مريده عمر بن جحا، هذه بعض أبياتها:

فخطب عظيم يا لها من مصيبة ... ورزء عظيم يا لها من رزياه
ومن لكتاب الله والشرع بعده ... ومن لأحاديث النبيء ومسراه
ومن للفتاوي والعلوم بأسرها ... ومن لتصاريف الكلام ومعناه

6- مواهب الرحيم، ص. 255-256.
7- في المطبوع: رسوله.
8- في المطبوع: الملكية.
9- مواهب الرحيم، ص. 256.
10- النصيحة الصغرى، منشورة ضمن (مواهب الرحيم)، ص. 273.

ومن لعلوم النحو والفقه ثم من   لتوحيد رب العالمين ومسراه[11].

ومن أهم ما يجب تسليط الضوء عليه، في البحث المفصَّل أمران:

أولهما: البحث عن الرؤية الجمالية في التوجه الصوفي عند الشيخ الأكبر، والتي أسفر عنها التداخل بين العلوم الثلاثة المذكورة، والتي كانت تهدف إلى تصفية تصوف المرحلة المذكورة من الشوائب المكدِّرة له، حيث كان يشبه البدع والأهواء بالأوساخ. وينعت في (النصيحة الصغرى)، العقيدة النقية بـ (الاعتقادات الجميلة).

ثانيهما: الكلام على البُعْد الاجتماعي لذلك التداخل، حيث كان يوصي بتعميم تعليم التوحيد، وأحكام الشريعة، والفقه الخالي من البدع والأهواء، على كل أفراد المجتمع، خاصة النساء، والصبيان، والأميين، ومحدودي التحصيل العلمي. مما يجعل تصوفه مفتوحا على المجتمع برمته، وليس منغلقا على أتباع طريقته.

وهذا يعني، أن رسائله تهدف إلى جعل المريد محصِّلا لهذه الأركان الثلاثة:

الركن الأول: العقيدة الأشعرية

تدل على ذلك نصيحته، التي تعرض فيها لوجوب معرفة ما يجب في حق الله عز وجل، وفي حق الأنبياء. وهذا يستلزم أيضا معرفة ما يستحيل وما يجوز في حقهما. وأقسام الثلاثة هي الحاصرة لما يعرَف بالحكم العقلي، كما هو صريح نصيحته: « وعليكم بمعرفة عقائد الإيمان، وهو ما يجب في حق مولانا جل وعز، وما يجوز، وما يستحيل، وفي حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي حق الملائكة. ومن لم يعرف العقائد، فليس بعارف »[12].

وكان التوحيد شاغلا للرجل في كل سكناته وحركاته، وحاضرا في أوراده. فقد كان « إذا صلى العشاء الأخيرة، يتنفل بمائة ركعة، ويختم وحده.وبعد ذلك، يذكر سبعين ألفا لا إله إلا الله، وسورة الإخلاص سبعين ألفا، واسم الجلالة خمسمائة. ويختم البردة والمرزوقية وأسماء الله الحسنى كل ليلة »[13].

ويذكر تلميذه وكاتبه محمد بن عطية بن إبراهيم، المشهور بـ(ميلاد)، بأن شيخه

11- مواهب الرحيم ص. 312.
12- المصدر نفسه، ص. 260.
13- المصدر نفسه، ص. 308.

الأسمـر أملى عليه «عقيدة، فيما يجب في حق الله عز وجل، وفيما يجب في حق رسله عليهم الصلاة والسلام، وفي حق الملائكة»[14].

ومما تلوح بـه هـذه القبيسة، أنه يربط التقليد في التوحيد بعدم حصول المعرفة. ومفهـومه أن عـدم التقليـد فـيها سـبيل من سبل العرفان. مما يدل على عمق العلاقة بين التوحـيد والتـصوف، ويوحـي بـرغبة في إرجـاع التوحيد إلى أصالته وبداهته، حين كان يعرف في القرون الأولى بــ(الفقه الأكبر)[15]، وكان مرتبطا بالفقه القلبي.

ولا شـك أن العقـيدة، الـتي يقـصد، هـي عقيدة أهل السنة والجماعة. فقد وصفه مـريده كـريم الـدين البرمونـي، في (روضة الأزهار) بأنه «كان مالكي المذهب، أشعري العقـيدة»[16]، ويـدل علـى ذلـك أيضا دعاؤه: «واجعلنا من أهل السنة والجماعة»[17]. وبالتحديد، كان على مذهب أبي الحسن الأشعري، كما يدل على ذلك كثير من عباراته، مـنها قـوله: «وعلـيكم بالوفاء بالعهود، والرجوع إلى الله تعالى في كل فعل من الأفعال، لأنـه خالـق للأفعـال كلـها، سـواء كانت مليحة، أو قبيحة»[18]، وقوله: «إلهي، فبقدرتك وقـوتك على الطاعة، قوني. وبحولك وقدرتك على المعصية، جنبني»[19]، وقوله: «ولا قـوة لي على الطاعة، ولا حول لي على المعصية»[20]، حيث إن الأشاعرة، هم القائلون بأن الله هو خالق الأفعال، بخيرها وشرها، بطاعتها ومعصيتها، بخلاف المعتزلة.

ومـن أذكـاره الواردة في (الحزب الكبير): «حسبي الله من كل شيء، ولا يغلب الله

14- مواهب الرحيم، ص. 292.

15- للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي كتاب في (علم الكلام)، موسوم بــ (الفقه الأكبر)، وللإمام محمد بن إدريس الشافعي كتاب يحمل العنوان نفسه، إلا أن حاجي خليفة شكك في نسبته إليه، وقال: «والظن الغالب، أنه من تأليف بعض أكابر العلماء» كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، تصحيح وتعليق محمد شرف الدين يالتقايا، ورفعت بيلكه الكليسي، وكالة المعارف، استنبول، 1362 / 1943، ج. 2، ص. 1287-1288.

16- مواهب الرحيم، ص. 123.

17- حزب الطمس، منشور ضمن (مواهب الرحيم)، ص. 300.

18- مواهب الرحيم، ص. 262.

19- حزب الطمس، ص. 299.

20- المصدر نفسه، ص. 299.

شيء، الله غالب كل شيء، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]»[21].

ومن أهم ما يجب التنبيه عليه، أن الشيخ الأسمر، كان على مذهب القائلين بعدم جواز التقليد في أصول الدين، كما تدل على ذلك عبارته: «ومن أراد منكم أن يعرف الله، فلينظر عقيدتنا، ويعتقد ما فيها، فإنه يخرج من التقليد الردي المذموم القبيح، الذي من كان عليه، لا يسمى عارفا»[22].

ومما يجب التنبيه عليه أيضا، أنه سلك مسلك صوفية المغرب، في توظيف المنطق في مباحثهم العقدية والصوفية. من ذلك اعتماده في قضية استحالة الجمع بين المتناقضين، المعروفة عند المنطقيين بـ(أم القضايا)، في إصدار بعض الأحكام، من قبيل قوله: «لأن الظلمة والنور، لا يجتمعان في مكان واحد»[23].

الركن الثاني: الفقه

تدل على ذلك نصائحه، الآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر، وذلك باتباع السنة النبوية، والعمل بما جاءت به من أحكام شرعية، يقول: «ولا منجى أنجى لكم من سنة رسول الله ﷺ. فعليكم باتباع السنة المحمدية، فعليكم باتباع السنة المحمدية! فعليكم باتباع السنة المحمدية! على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. قال لي شيخنا رحمه الله تعالى: السنة هي الطريقة البيضاء، فعليكم بها، وباتباع الشرع العزيز، وما فرض الله عليكم. وعليكم بمعرفة فرائض الطهارة، من الجنابة، والوضوء، والصلاة، والتيمم، والصيام، والزكاة، والحج، وجميع الواجبات! لأن الفروض لا تصح، إلا بمعرفة واجباتها، ومبطلاتها، وسننها، ولا تكمل، إلا بمعرفة مندوباتها، ومكروهاتها. فعليكم بمعرفة الواجبات والمبطلات، والمندوبات، والمكروهات، والجائزات، بجميع العبادات! فافهموا!»[24].

ومن نافلة القول، التذكير بأن مذهب الشيخ الأسمر في الفقه، هو المذهب المالكي. وقد كان حريصا على اتباع هذا المذهب، حيث كان يحث على العمل ببعض

21- الحزب الكبير، منشور ضمن (مواهب الرحيم)، ص. 296.
22- النصيحة الصغرى، ص. 276.
23- المصدر نفسه، ص. 276، 280.
24- مواهب الرحيم، ص. 260.

الخصائص الفقهية للمذهب في غير الموطن المنوطة به.

بيان ذلك، أنه لا يكتفي بالعمل بالسدل في مورد الصلاة، بل يتعدى ذلك إلى العمل به في موارد الذكر أيضا: «ووضع اليدين على الركبتين، إن كان جالسا. وإن كان قائما، فيرسلهما مع الفخذين، ما دام يعقل»[25].

والفقه يبقى مفرغا من محتواه الحقيقي، ما لم يتحول إلى ممارسة أخلاقية، كما هو مذهب الصوفية، حيث يربط الأسمر بين استقامة الأقوال والأفعال -ولا استقامة إلا باتباع الأوامر، واجتناب النواهي- وانشراح الصدر بأنوار المعرفة، التي يورثها الشيخ المربي، المتخلق بأخلاق القرآن، والمتبع للسنة النبوية، وبعبارته: «ولا تصلح المشيخة الكاملة، إلا لمن كان على قدم رسول الله ﷺ، وهو من كملت أحواله، واستقامت أقواله وأفعاله، وكان متخلقا بالقرآن العظيم، متحليا بمعاني أسماء الله الحسنى، وكان ذا علم راسخ، وعقل سليم، ونفس طاهرة، وذهب هواه، وانشرح صدره، وتنور قلبه بأنوار المعرفة، فسلمت بطنته وفطرته، وتنورت بصيرته، وترجح رأيه، وأخذ من وارث»[26].

وبناء على ذلك، يرى وجوب توقير الفقهاء، لأنهم حملة الشرع، مع مراعاة الحذر من مخالطتهم، ما لم يخلصوا من حظوظ النفس، وما لم يسلكوا مسلك التصوف[27].

الركن الثالث: التصوف

يدل عليه نصائحه في اجتناب ما فيه شبهة شرعية، أو ضياع مصلحة دينية، وبعبارته: «وعليكم بترك الناس جانباً، وبالعزلة عنهم، إلا عند ضرورة. فلا بد من الصمت، عند الخوض في الكلام معهم، إلا لحاجة ضرورية»[28].

وحيث إن من أسباب فساد التصوف في عصره، أن الممارسة الصوفية أُفْرِغَت من محتواها الروحي والأخلاقي. فصارت طريقة مجردة عن الحقيقة، وتحولت؛ بسبب ذلك؛ إلى ممارسات طرقية، بعد أن كان تجربة روحية حية، لدى كبار أقطاب التصوف، فإن الشيخ الأسمر يرى أن التصوف لا يصلح إلا بإرجاعه إلى أصالته، فيكون جامعا بين

25- النصيحة الصغرى، ص. 276.

26- مواهب الرحيم، ص. 306.

27- المصدر نفسه، ص. 268.

28- المصدر نفسه، ص. 263.

الطـريقة والحقـيقة، بل صار هذان الهاجسان شاغلان له. يدل على ذلك تضمينه لأحزابه التضرع إلى الله بمثل هذا الدعاء: «واجعلنا من التابعين للطريقة والحقيقة»[29].

ومـن أهم صفات التصوف، الجامع بين الطريقة والحقيقة، حضور البُعْد العملي، والأخـذ بالأسباب، كما هو مفهوم هذا الدعاء: «يا رب الأرباب، ويا مسبب الأسباب»[30]، ودعـاؤه: «... وأن تـصرف عنا الكسل والكساد، وأبعد عنا الدنس والفساد، وعدك يا من لا يخلف الميعاد»[31].

ونقـصد بأقطـاب التـصوف العـارفين الذي ساروا على محجة الأنبياء. ونذكر من هـؤلاء بعـض المـصادر المعرفية للشيخ الأسمر، حيث يدعو الله تعالى بجاههم، مما فيه إشارة إلى أنهم من أهم منابع طريقته الصوفية.

فقـد قـال في (حـزب الطمـس): «اللـهم إنـي أدعـوك بجميـع الأنبياء، والأولياء، وسـيدي أبـي مدين، وسيدي أحمد البدوي، وسيدي عبد القادر الجيلاني، وسيدي أحمد ابـن عـروس، وسـيدي محـرز ابـن خلف، وسيدي أبي يعزى، وسيدي محمد بن عيسى، وسـيدي أبـي عـبد الله، وسيدي أبي جعفر، وسيدي سالم المشاطي، وأهل طريقتنا هذه، وسيدي محيي الدين ابن عربي، وسيدي البوصيري ...»[32].

يقـصد بـذلك، أن يَرِدُوا موارد الورع. ويبني على ذلك، إيثار العزلة على الخلطة، إلا لضرورة.

إن هـذه العـزلة، هـي الـتي تـورِّث معـرفة الله سـبحانه وتعالى. وهذا بديهي، لأن الـتأمل في الخالق، ينبغي أن لا يعكر صفوه بالسِّوَى. وهو من ألطف سبل معرفة أسرار هـذا الكون، وإدراك أسرار خلقه فيه، وبعبارته: «بل الذي عرف الله تعالى، لا يخفى عليه شـيء في الأرض، ولا في السماء، ولا في جميع الكون»[33]، «والتفكر بالقلب والعقل، في مصنوعات الله تعالى، هو سراج القلب. فإذا سكن القلب عنه، بقي مظلما. وساعة من

29- حزب الطمس، ص. 299.

30- حزب الخوف، منشور ضمن (مواهب الرحيم)، ص. 302.

31- حزب الطمس، ص. 301.

32- المصدر نفسه، ص. 301.

33- النصيحة الصغرى، ص. 270.

التذكر، تعدل عبادة سنة. وهو هداية من الله تعالى»[34].

وفي معرض الكلام على الحضرة، يذكر أن «رأس ثمرتها خروج الأكوان كلها من القلب، جملة وتفصيلا، لأنها ما شرعها أهل الطريقة، إلا للفقراء المبتدئين، لكي تخرج الأكوان من قلوبهم، بسبب ذكرهم فيها، لأن الذكر من أفواه كثيرة، له تأثير قوي في القلب»[35].

وعليه، فيجب ربط كل ممارسات الذكر بالمذكور سبحانه وتعالى، ورد النفس إليه، إذا مالت لغيره، وليس كل كلام من جنس الذكر، «فإذا كانت في الحضرة إلى استماع الأصوات، فردوا –كما يقول الشيخ الأسمر– قلوبكم للذي خلق الأصوات سبحانه وتعالى»[36].

وتتأكد هذه العزلة، في مواطن الذكر، حيث يجب «طرد الخواطر كلها، حتى لا يبقى في القلب، إلا الله تعالى»[37]. بل تزداد هذه العزلة تأكّدا، في مقام الذكر، حيث يمنع منها المتلبسون بالدنيا وشرورها، كما هو صريح قوله: «ومن شروط حضرتنا، أن تكون معزولة عن الناس الأرذلين، والفساق، وشاربي الخمر، والنساء، وتاركي الصلاة، والظلمة»[38].

فلا غرو أن يجعل للسماع آدابا، «وهي: تغميض البصر، وتحضير القلب، بأن تفرغوا –كما يقول الشيخ الأسمر– قلوبكم من كل مخلوق، وتعرفوا من تذكرونه، وترك الوسوسة، لأنها من الشيطان، وترك الالتفات، وترك الحركة ما دمتم تشعرون بأنفسكم، وأن يخرج الذكر من أفواهكم بميزان واحد، من غير اختلاف للصوت»[39].

وما أدرك الشيخ الأسمر ما أدركه من ولاية، إلا بتبوُّء هذا المقام، يقول: «وهذا مقامي الآن، والحمد لله على نعمائه، التي لا تحصى، والله المعطي الوهاب، يحب لعبده

34- النصيحة الصغرى، ص. 277.
35- المصدر نفسه، ص. 279.
36- المصدر نفسه، ص. 280.
37- المصدر نفسه، ص. 278.
38- المصدر نفسه، ص. 278.
39- المصدر نفسه، ص. 277-278.

ما يشاء، سبحانه وتعالى »[40].

التصوف الجنيدي عند الأسمر

يميـز سبنـسر ترمنجهام، بين اتجاهين متقابلين في التصوف: (الاتجاه الجنيدي)، و(الاتجاه البسطامي). ويسمي هذا الأخير بـ(الاتجاه الطيفوري) أيضا. ويسميهما أيضا: (المدرسة الجنيدية)، و(المدرسة البسطامية).

أما الاتجاه الأول، فيتميز بالصحو. وأما الثاني، فيتميز بالنشوة والسكر والغلبة. ثم يأتي بعدهما التصوف المغربي، المنبثق عن أبي مدين، الذي شكل حيزا ثالثا، له مميزاته الخاصة[41].

ويعتبر الشيخ الأسمر ممثلا للاتجاه الأول، حيث يرى أن علامة « الذاكر الواعي الصاحي »، أنه « يكون بعد الورد ساكنا ساكتا، لا يخالف الشريعة، عن صحو »[42].

وقد برز التداخل بين التوحيد، والفقه، والتصوف، مع الإشارة إلى رفض الواضع السياسي الفاسد، في أحزابه وأوراده. مما يوحي بالوظيفة الاجتماعية والسياسية، التي يتبوؤها الصوفي، من خلال الجمع المذكور، وتحويل التصوف من ممارسات سلبية، تعيش في برج عاجي، إلى ممارسة اجتماعية مشحونة بالحيوية والنشاط.

ومن الأدعية المقررة لذلك، هذا الدعاء، الوارد في (حزب الطمس): « لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المنفرد بالبقاء والعزة والكبرياء. إلهي، تعاظمت عظمتك، وتكون كونك بعزتك، واستويت على العرش[43]، بقدرتك، وقهرك، وعدلك، وحكمك. إلهي، إن الخير كله بيدك، وأنت واهبه، ومعطيه لعبدك. فقد أمرت، ونهيت، ولا قوة لي على الطاعة، ولا حول لي عن المعصية. إلهي، فبقدرتك وقوتك على الطاعة، قوني. وبحولك وقدرتك على المعصية، جنبني. إلهي، واطمس على وجه أعدائي، وأعداء فقرائي. اللهم عجل دمارهم، حتى لا يستطيعون مرصدا، ولا يستطيعون مسندا، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ

40- النصيحة الصغرى، ص. 270.

41- الفرق الإسلامية في المغرب، ص. 26-27، 42.

42- النصيحة الصغرى، ص. 277.

43- في المطبوع: واستوليت عن العرش.

مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: 227]»[44].

فقد ابتدأ في هذا الدعاء بأوجب الواجبات، التي لا يسبقها سابق، ولا يتقدم عليها متقدم، وهو التوحيد. ثم أردفها بالكلام على الأوامر والنواهي، التي يضبطها الفقه. ثم تكلم على أهم خصيصة صوفية، وهي التفويض والتسليم لله تعالى في حالتي الطاعة والمعصية. ثم توج ذلك بالبعد الإصلاحي، المترتب على تداخل العلوم الثلاثة المذكورة، وتدل على ذلك العبارة الدعائية المتوجهة إلى الله تعالى بقطع دابر الظالمين والمفسدين.

فكرة فساد الزمان عند الأسمر

بيد أن أسئلة تطرح نفسها، في هذا المقام، وهي:

- أليس الإسلام جامعا بين هذه الأمور الثلاثة؟
- وما هي الأسباب، التي حدَتْ بالشيخ الأسمر إلى التركيز عليها، في كتبه ونصائحه؟
- أليس صنيعه هذا من باب تحصيل الحاصل؟

لا جرم أن الشيخ الأسمر، يدرك أن الإسلام عقيدة، وهذه العقيدة تبنى عليها شريعة، وهما تجلي الجلال، ويأتي الإخلاص لله في العلم والعمل (التصوف)، ليضفي عليهما حلة الجمال.

بيد أن توجه الأسمر، لا ينبغي أن يدرس في معزل عن الواقع، الذي كان يعيش فيه، والفترة الزمنية، التي وصفت بأنها من أحلك المراحل، حيث ساد التصوف البدعي، وغدت الشريعة قوانين جامدة لا روح فيها، وتسربت البدع إلى عقول المسلمين، لتلوث توحيدهم.

ولا ريب أن هذه الفترة الزمنية، هي القرن العاشر. وقد وصف الأسمر هذا الزمان بأنه «زمان فساد وخيانة، لا خير فيه، وهو أقبح ما مضى من الزمان، من حين علمنا وأوجدنا الله إلى الآن، ولا حول ولا قوة، إلا بالله العلي العظيم»[45]، وحذر من مخالطة مُدَّعي التقوى الزائفة، من محترفي التصوف البدعي، حيث يسميهم بـ (أهل الخوارق)، و(المستدرجين)[46]، ويشدد في التحذير منهم: «وإياكم ومخالطة فقراء هذا الزمان،

44- حزب الطمس، ص. 299.

45- مواهب الرحيم، ص. 270.

46- النصيحة الصغرى، ص. 274.

الـذين لا يـرجعون لأصـل، ولا قاعـدة، والغالـب علـيهم الجهالة، ولا يتبعون سننا، ولا فرائض، فإن مخالطتكم لهمّ، تورث العلة والفساد»[47].

ناهـيك عن انتشار الظلم، وما يترتب عليه من فساد وعلة، مما فيه قضاء على كل القيم الروحية، التي تضمن للإنسان استقراره النفسي واطمئنانه الروحي. وقد عبر عن هذا الواقـع، بـدعاء له في (حزب الخوف) فقال: «يا رب، يتضرع إليك عبدك، وأقل عبيدك، يـشكي إلـيك مـن عظمة الأمر، ووساوس الصدر، وظلم الخلق، وكشف الستر، وإشكال الأمر، وقلة النهي، وتبديل الأمور، والنطق بالباطل، وشهادة الزور، وجور المخازنية، وظلم الجبابرة العادية. اللهم احفظنا، وقنا منهم، واجبرنا، يا جابر العظم المكسور»[48].

ولعـل هذا الموقف من القرن العاشر، الذي كان يتقلب فيه الشيخ الأسمر، يعطينا فهما لنهيه مريديه عن «لباس النعل الأسود، وكل السواد، مدة حياته»[49]، وكذلك اللون الأحمـر، حيث يقول بصيغة التحذير الشديد: «وإياكم واللباس الأسود والأحمر! وإياكم واللـباس الأسـود والأحمـر! وإيـاكم واللباس الأسود والأحمر! ومن لبسه منكم، وأصابه شـيء مـن الهموم، والغموم، والحزان، وشبهها، فلا يلوم إلا نفسه، لأننا لا نلبس[50] ذلك قـط، حتـى نلاقـي[51] الله. فاتبعونـي في هـذه الخـصلة، ولا تخالفوني. وكذلك كل لون مخالـف للبياض، فاتركوه! فاتركوه! فاتركوه!»[52]. كما يستعمل اللون الأسود في مقام الكلام على الشرور، فـ (النجس ظلمة)[53].

فـأول سؤال يستفزنا، لدى قراءة هذا النهي، هو أن اللونين المذكورين، كانت لهما دلالـة محمـودة لـدى المتـصوفة، حـيث اللون الأحمر كان يرمز عندهم إلى الجهاد في سـبيل الله تعـالى، ويـدل على ذلك؛ مثلا؛ حرصهم على كتابة (الصلاة المشيشية) باللون الأحمـر، أو شكلها به، إيحاء منهم إلى النزعة الجهادية لصاحبها عبد السلام بن مشيش، الذي مات شهيدا، وكانت له محاولة للذهاب إلى الأندلس بقصد مجاهدة الصليبيين.

47- النصيحة الصغرى، ص. 275.

48- حزب الخوف لعبد السلام الأسمر، ضمن (مواهب الرحيم)، ص. 302.

49- مواهب الرحيم، ص. 123.

50- في المطبوع: لا نلبسوا.

51- في المطبوع: حتى نلاقوا.

52- النصيحة الصغرى، ص. 267.

53- المصدر نفسه، ص. 280.

واستعمال اللون الأحمر في هذه الصلاة، يوحي بضرورة استحضار الأدوار التاريخية التي قام بها المتصوفة في تاريخ المغرب، بالرباطات ومواجهة الصليبيين المحتلين لشواطئ المغرب.

ولو ألقينا نظرة تاريخية على المرحلة، التي تقلب فيها الشيخ الأسمر، فقد نستشف بعض دلالات اللونين، اللذين حذر من ارتدائهما. فعصره كان عصرا مظلما، كما تدل على ذلك مصطلحات استعملها في وصاياه، من قبيل (الظُّلْمة)[54]، و(العلة، والفساد)[55]، وغيرها من المصطلحات المورثة لنزعة تشاؤمية، تجعلك تنظر إلى الواقع بمنظار أسود قاتم، بحيث يصير السواد دالا على هذا الواقع المظلم السوداوي، أكثر من دلالته على قيم كان لها حضور في عصور الرقي الإسلامي، حتى إن العباسيين اتخذوا السواد شعارا لهم، لما فيه من دلالة الانتساب لأهل البيت، والتمثل بقيمهم، والتخلق بأخلاقهم.

وكذلك الأمر بالنسبة للون الأحمر، حيث يوحي بواقع ساد فيه الظلم، وسفكت فيه الدماء بغير وجه حق. فصار ارتداؤه موحيا بخصائص هذا الواقع، أكثر من كونه موحيا بخصائص العزة والكرامة، التي يورثها ممارسات من قبيل الرباط والجهاد.

وحيث إن الصوفي الحق، في نظر عبد السلام الأسمر، هو الذي يحيي القيم الإسلامية المحمودة المشار إليها، فإنه يدل بحركاته وسكناته على رفضه للواقع. ولا شك أن أول خطوات الإصلاح هو نقد الذات، ورفض سلبيات الواقع.

وبذلك، يكون لزاما على المريد الصادق، أن يعرب عن معارضته للقيم السائدة في المجتمع، والإعراض عن العناصر الدالة عليها، وأهمها عنصر اللون.

وفي المقابل، يكون لزاما عليه تمثُّل القيم المخالفة لها، وهي قيم الخير، المرموز إليها عنده بمصطلح (النور)، الذي يردده في مقامات الكلام على الخير[56]، فـ (الذكر نور)[57]. ومن دلالات تمثله التزيي باللون الأبيض، وبعبارته: «ولا تلبسوا، إلا الذي لونه أبيض محضا، غير مخلوط بشيء، إلا الأحمر على الرأس والرجل، فلا مضرة فيه، إن

54- الوصية الصغرى، ص. 274، 276، 280.

55- المصدر نفسه، ص. 275.

56- انظر؛ مثلا: (النصيحة الصغرى) (ص. 276).

57- المصدر نفسه، ص. 280.

شاء الله، لأنه لبس مشايخ طريقتنا، نفعنا الله بهم، ولم ينهونا عنه، ونهونا عن الأسود غاية النهي»[58].

ونلحظ في هذه القبيسة، إباحته للبس الأحمر في حدود معيَّنة، وهو الرأس والرجل. مما يعني أن دلالة اللون الأحمر الأصلية، يجب أن لا تغيب عن الأذهان، وأن تكون الأرجل على أهبة الاستعداد للقيام بفضيلة الجهاد والرباط.

أما ما ذكرنا من نزعة تشاؤمية، فلا تعني ألبتة اليأس بمفهومه المخالف للنظرة التوحيدية في القرآن الكريم، حيث إن اليأس يأسان: يأس إيجابي، ويأس سلبي. أما الأول، فهو اليأس من القدر، وعدم الرضا به إذا كان شرا، وهو ما يضفي على الحياة عنصر الكآبة والركون إلى السلبية المقيتة. وأما الثاني، فهو عدم الرضا بالواقع الفاسد، والسعي الحثيث من أجل تغييره، ومحاربة أسبابه، وهو الذي يحث عليه الشيخ الأسمر، كما تدل على ذلك عباراته ومفرداته.

فلا غرو إذًا أن يحث مريديه على ارتداء لون يعبر عن نزعة حياتية، ورغبة في تغيير الواقع، حتى يصير جميلا كجمال الجنة. إنه اللون، الذي ورد في الأخبار أنه لون الجنة، واللون الذي يحيل إلى بهجة الحياة، وخصوبة الأرض، التي لا تكون ناضرة بدونه. إنه اللون الأخضر، حيث قال بشأنه: «والأخضر، لا بأس به أيضا، دون غيره من الألوان»[59].

وبناء على ذلك، فإن نهيه لمريديه عن اللونين الأسود والأحمر، ليس من قبيل اليأس المخل بالتوحيد، ولا من التطير الموقع في الشرك الأصغر، بل إنه دعوة لممارسة توحيدية، تؤطرها صفة الجمال، كما سنرى بعد حين.

التوجه المقاصدي عند الأسمر

ومن مظاهر رفضه للجمود الفقهي، أنه كان ينظر إلى أمور الفقه، على ضوء مقاصد الشريعة. من ذلك، أمره للمريدين بأن ينظروا إلى الأشياء باعتبار مآلاتها[60]،

58- النصيحة الصغرى، ص. 167.

59- المصدر نفسه، ص. 267.

60- لعبد السلام الأسمر رسالة موسومة بـ(كلام في المغيبات)، محفوظة في المكتبة الوطنية بالرباط، مسجلة تحت رقم 2415 د، ضمن مجموع، من الورقة 162 أ إلى 167 أ. ويمكن أن نعتبر =

وأمره لهم بأن يراعوا منطق ترتيب الأولويات، والعمل بفقه الموازنات. فلا يرجحون مستحبا على واجب، ولا يجتنبون مكروها فيقعوا في محرم، كما هو مؤدى قوله، لدى تعريفه للهوى: «وحقيقة اتباع الهوى: هو أن يشتغل المريد بالأوراد والفضائل، ويترك ما أوجب الله عليه، وتعلم الواجبات. فمن كان هكذا وصفه، فلا تقبلوه قط بالكلية، لأنه لا يفلح أبدا»(61).

ومن أمثله ذلك، أنه يأمرهم بتبليغ نصيحته الصغرى، برفق ولين، وأن لا يكون في تحصيلها. إذاية أو ضرر، ثم يقول: «وقد كان بعض الصالحين يبخل بها، ولا يُمَكِّنها لأحد، خوفا أن يكون بإظهارها متسببا في إذاية ذرية السيخ»(62).

وبهذه الرؤية المقاصدية، توزن العادات والأعراف، حيث تقبل ما لم يكن فيها إخلال بضروري من الضروريات الخمس، أو بمقصد من المقاصد العامة، أو الخاصة، أو الجزئية.

ومن ذلك، نهيه عن دخول السوق، إلا لضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، فلا يمكث فيه، ويكتفي في قضاء حوائجه منه بحواشيه، دون الإغراق في بواطنه(63)، لما في ذلك من إخلال بحفظ العقل والدين، «لأن دخوله، في هذا الزمان -كما يقول الشيخ الأسمر- فيه علة عظيمة، وفساد في الدين والعقل»(64).

ويؤصل لبعض الممارسات الصوفية تأصيلا شرعيا، لتأكيد التداخل بين علمَي الفقه والتصوف، حيث يبرز الوجوه المقاصدية لبعض سلوك أهل الله، كمسلك الجوع. فهو وسيلة من وسائل الترقية الروحية، لكنه لا يخلو من منافع جسدية، تحقق ضرورة من الضروريات الخمس، وهو (حفظ النفس)، ناهيك عن مقصد (حفظ النفس).

وتقريب ذلك بقوله: «وعليكم بالجوع، لأن المأكول يصير نجسا في الجوف،

=

كشوفاته الغيبية، وإخباره بما سيقع، بعد وفاته، من فتن، وأحداث، وأشراط الساعة كظهور المهدي، ونزول عيسى، مع ذكر تواريخ ظهورها، يدخل في إطار نصيحة مريديه بالنظر إلى مآلات الأشياء، مما يمكن أن نعتبره من قبيل ما يسمى، في فترتنا المعاصرة، بـ (الدراسات المستقبلية).

61- النصيحة الصغرى، ص. 271.

62- مواهب الرحيم، ص. 256.

63- النصيحة الصغرى، ص. 275.

64- المصدر نفسه، ص. 275.

والنجس ظلمة، والذكر نور، والظلمة والنور، لا يجتمعان في مكان واحد، فافهموا. والجوع يقهر النفس والشيطان، وفيه صحة الدين والجسد. والشبع يقوي النفس، ويقرب منكم الشيطان، خصوصا إذا كان طعاما[65] من حرام، ففيه فساد الدين والجسد. وفضل الصوم كثير عند الله تعالى »[66].

ومن مظاهر فساد التصوف في عصره، ظهور بدعة اختلاط الرجال بالنساء في حلقات الذكر، كما تدل على ذلك نصيحته: « فخذوا حذركم من النسوان، ومخالطتهم، والنظر إليهن، ومكالمتهن. والذكر معهن من أكبر الفتنة. وأكبر منه فتنة سماع زغاريتهن. فاحتفظوا جهدكم من مصايد إبليس، والنساء للشيطان مثل الشبكة للصياد »[67]. والحضرة، إذا دخلها النساء، ولو كان فيها ذكر، « فهي حضرة الشيطان »[68].

ومن آفات التصوف، التي ظهرت في عصره، تقديس الشيخ بما يجعله في مقام النبي. ولذا، يشترط على مريديه ربط اتباعه باتباع السنة، يقول: « وحصول فائدتكم، تكون برؤيتي، واتباع السنة، والحق، والصواب، لا برؤيتي فقط »[69].

وعليه، فيجب قراءة أقوال الشيخ الأسمر، على هذا الضوء، لا سيما ما يخالف مبادئ العقل والشرع، بحسب الظاهر، مثل أمره للمريد الفقير العروسي الصادق مع الله تعالى، أن « يكون بين يدي شيخه، كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء. ويكون مثل الدابة، إن حملوا عليها شيئا، حملت، وإن تركوها، رضيت. ومن لم يكن على هذا الوصف، لا ينتفع من شيخه بشيء »[70].

حيث إن المقصود من ذلك، أن المريد يجب أن يتبع ما يأمره به الشيخ من أوامر النبي ﷺ، وينتهي عن ما يحذره من نواهيه ﷺ، حتى يكون ممتثلاً لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [البقرة: 285].

ويعرف (الزندقة)، بأنها « تزويق الظاهر، وفساد الباطن، فيما بين العبد وربه »،

65- في المطبوع: طعام.
66- النصيحة الصغرى، ص. 280.
67- النصيحة الصغرى، منشورة ضمن (مواهب الرحيم)، ص. 258.
68- النصيحة الصغرى، ص. 278.
69- المصدر نفسه، ص. 266.
70- المصدر نفسه، ص. 271.

ويشدد في التحذير منها[71]، مما يدل على أن التوحيد، في عصره، قد شابته الشوائب.

من هنا، كان لزاما عليه، أن يعيد لعلوم التوحيد، والفقه، والتصوف، أصالتها وبداهتها، بتحقيق التداخل بينها، مع مراعاة ابتناء شريعة الإسلام على جلب المصلحة ودرء المفسدة.

لقد عَرَّف علماء أهل السنة والجماعة الإيمان بأنه «اعتقاد بالجَنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان»، مما يستلزم أن الاعتقاد بالقلب وحده لا وزن له، ما لم تكن له مصاديق عملية، بالعمل بالأوامر والنواهي، ومصاديق أخلاقية. وهذا هو الذي عَبَّر عنه الشيخ الأسمر بقوله: «حفظ اللسان من الكلام وجميع الفواحش، وحفظ القلب من الاعتقاد الفاحش القبيح، في حق الله عز وجل، وفي حق رسله، وفي حق أنبيائه، وفي حق ملائكته، وأوليائه، وجميع خلقه. فلا تعتقدوا إلا ما يوافق الشرع العزيز، وترك إيمان الفساق، وسب المسلم، وتخويفه، وإهانته لغير وجه شرعي، وترك سب جميع الناس، إلا ما يترتب عليه مصلحة شرعية»[72].

وإذا كان تفعيل الفقه عند الأسمر يكون بالنظر في مقاصد الشريعة، لكون الشريعة معللة بجلب المصلحة ودرء المفسدة كما ذكرنا، فإن تفعيل التوحيد، يكون بالنظر في عجائب خلق الله في هذا الكون، وهو «حال الفقير، الصادق، التائب، الراجع إلى الله تعالى: إن تكلم ذكر، وإن صمت تفكر في إيجاد الخلق، وإعدام الخلق، بعد الوجود»[73].

ويكفي التصوف فضلا، أنه يخلي التوحيد من الأكدار، فيصير العبد في كل حركاته وسكناته لله، ولا يقصد إلا الله.

الجلال والجمال في فكر الأسمر

وعلى ضوء ذلك يعتبر الشيخ الأسمر العالم هو «من أحب شيئا، وفرح به، فهو عبد له»، والجاهل هو «من فرح بشيء سوى الله تعالى»، وهو «جاهل بالله تعالى، لأنه فرح بغير الله عز وجل»، ولو كان فرحا بـ «الدرجات، والمقامات، والمكاشفات»،

71- النصيحة الصغرى، ص. 259.

72- المصدر نفسه، ص. 258.

73- المصدر نفسه، ص. 258.

« وكـذلك الـدعاء، لا تفـرحوا فـيه –كمـا يقـول الـشيخ الأسمـر– بالإجابـة، ولا يكـون مقصودكم به حصول الحاجة. ولكن، يكون مقصودكم خطاب ربكم، الذي خطابه أحلى مـن خطاب كل شيء، ويكون فرحكم –في حالة الدعاء– بالذي وفقكم لخطابه سبحانه وتعـالى. وأمـا الإجابـة مـنه تعالى، فهي حاصلة قطعا، لأنه كريم رحيم، والكريم لا يرد الـسائل بـلا حاجـة قـط. حاصله: لا تفرحوا بشيء أعجبكم سوى الله تعالى. ولو عرفتم الحق حق معرفته، ما أعجبكم شيء سوى الله تعالى »(74).

ولعـل هـذا ما يجعلنا نفهم مدى عمق التداخل بين العقيدة والتصوف، عند الشيخ الأسمـر. ويمكـن مـن خلالـه أن نفهـم ما يقصده من مصطلح (الاعتقاد)، في اعتباره أن الذاكر إذا قعد « ينصت الذكر بنية الاعتقاد قام وهو بلا ذنب »(75)، إذ الاعتقاد، على ضوء مـا قـررناه، يوحي بأن المقصود به الاعتقاد في الله سبحانه وتعالى اعتقادا سليما من كل الشوائب، بما فيها شوائب التفكر وما يلحق به من وساوس وأحاديث النفس.

كما ارتبط معه التوحيد بصفة الجمال، حيث لا يكون التوحيد جميلا، إلا إذا كان سـليما مـن الشوائب والبدع والهوى: « وإياكم ومخالطة أهل الهوى، والبدعة، والخوارق، والمـستدرجين، فـإنكم لا تـنالون مـنهم إلا الظلمـة والـشك في الاعتقادات الجميلة. فلا تخالطـوهم، ولا تقـربوهم قـط »(76). مما يجعل الممارسة الصوفية، عند الشيخ الأسمر، ممارسة توحيدية جمالية.

ولعـل هـذا الفهـم للتوحـيد، من أبرز تجليات التشبه بصفات الله تعالى، والتخلق بأخلاقـه عـز وجـل، حيث إن صفة الجمال هي الصفة السارية في كل أسماء الله تعالى وصـفاته، فهـو رحـيم لأن رحمـته جمـيلة، وعـادل لأن عدلـه جميل، وواهب لأن هباته جميلة.

وبذلك، يمكن القول: إن الرؤية الجمالية للتوحيد، عند الشيخ الأسمر، من صميم مـا نقلـناه عـنه من تشدده في وجوب العمل بسنة رسول الله ﷺ، قولا وعملا، ومن سنته قوله ﷺ: « إن الله تعالى جميل، يحب الجمال »(77).

74- النصيحة الصغرى، ص. 274.

75- المصدر نفسه، ص. 281.

76- المصدر نفسه، ص. 274.

77- رواه مسلم، والترمذي، عن ابن مسعود، والطبراني في (الكبير)، عن أبي أمامة، والحاكم في =

وكما يلزم استحضار عنصر الجمال في التوحيد، يلزم التمثل به أيضا في المعاملات، فيصير الصوفي جميلا في أخلاقه، ويتحلى بما هو تجلٍّ لهذا الجمال. وأهم هذه التجليات، خصلة (الحياء)، التي تضفي على صاحبها عنصر الحسن النوعي بجمال الباطن، كما هو مؤدَّى قوله: «والعروسي يكون في الحياء مثل حسنة الصورة من النساء، في السوق وغيره»[78].

ومن مظاهره (التواضع)، وذلك بـ «الاعتقاد في كل من تذكر معه أنه أفضل منك»[79]، ويجعل ذلك من شروط الانتفاع بالذكر[80]. ومن مظاهره المحبة، في كل صغيرة وكبيرة، بما فيها عشق الكلمات الطيبات، حتى إنه يعتبر أن من قال كلامه «بشوق ومحبة وعقيدة، حضرت روحي بين يديه»[81].

ولم يغفل الشيخ الأسمر، في أثناء تصوره الجمالي، أن يستحضر بعض خصائص الجمال، من قبيل لفظة (التاج)، التي ترمز إلى السمو، والهيبة، والجلال، وهي من أهم مقاصد الجمال. فقد قال في دعاء له في (الحزب الكبير): «وقلدني سيف نصرك وحمايتك، وألبسني تاجا من تيجان عزك وكرامتك وهيبتك، وعافيتك»[82].

ولا يخفى ما في ذلك، من تشبه بصفات النبي ﷺ، الذي اتصف بأرقى صفات الجمال، حيث أضفى عليه الصوفية صفات العروس، كالجمال، والعز، والكرامة. وحَلَّوْهُ بأجمل حلية ترتادها العروس، ليلة العرس، وهو التاج، فحلَّوه بـ(ياقوتة تاج محاسن الخلال)[83]، و(تاج مملكة التمكين)[84]، و(تاج المملكة الإلهية)[85]، و(تاج العز

=

(المستدرك)، عن ابن عمر، وابن عساكر، عن جابر وابن عمر. ورمز إليه السيوطي بالصحة (الجامع الصغير، ج. 1، ص. 107، الحديث 1720. وانظر أيضا (فيض القدير شرح الجامع الصغير) لمحمد عبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة، ط. 1، 1356 / 1938، ج. 2، ص. 324-325).

78- النصيحة الصغرى، ص. 275.

79- المصدر نفسه، ص. 278.

80- المصدر نفسه، ص. 278.

81- المصدر نفسه، ص. 281.

82- الحزب الكبير، ص. 298.

83- مسالك الحنفا إلى مشارع الصلاة على المصطفى لأبي العباس أحمد بن محمد القسطلاني، اعتنى به حسين محمد علي شكري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005/1426، ص. 448.

والكرامة)[86]، إلخ.

وقد كان الشيخ الأسمر، يبغي من وراء ذلك أيضا، القيام بالإصلاح الاجتماعي، بالقضاء على البدع والفواحش، التي استطارت، كما تلوح من ذلك عباراته، التي ينصح بها مريديه، بالتحذير من الانخراط في سلك الممارسات الاجتماعية المخلة بالدين وبالحشمة، من قبيل تحذيرهم من أن يفعلوا «العرس بشيء من المحرمات، مثل الغناء، والزغاريت، والصراخ، والتصفيق، والرقص، والمزامير كالعود، والرباب، والشبابة، والفحل، والزكرة، والطبل. فهذه كلها حرام في العرس وغيره، ولا تنصتوا لصوتها، فإنها من الشيطان لعنه الله، وتجمع جنوده، كما يجمع المؤذن جماعة المسلمين للصلاة، فافهموا. وأما اجتماع الرجال والنساء في العرس، بأن ينظر بعضهم بعضا، فهو من أكبر فساد الدين. والعروسي، لا يرضى شيئا، ولا يفعل شيئا، من كل ما حذرتكم منه في العرس. فمن فعل شيئا من هذا في العرس، فهو بريء منا، ونحن بريئون منه. ومن تاب، تاب الله عليه»[87].

كما أن الرؤية الجمالية المذكورة، تستلزم رفض المظاهر القبيحة لبعض الممارسات الصوفية البدعية. فـ«من الجنون، وعمل الشيطان، والاستدراج، ومخالفة السنة، أكل السمومات، ولحس المناجل المحميات بالنار، والضرب بالسيوف والسكاكين على يمينه وشماله وبطنه»[88]. ويشبهها بالوسخ، تغسل بجمال حضرة نظيفة، وبعبارته، بعد الكلام على الخوارق والكرامات الكاذبة: «حضرتنا صباغة غسالة، تغسل جميع الأوساخ [...] حضرتنا قوية، تنبت الأولياء، كما ينبت البقل حميل السيل»[89].

ومن هنا، تأتي مسؤولية وجوب تعميم تعليم أمور العقيدة، والشريعة، والآداب: «وعليكم بتعليم أولادكم القرآن، وعقائد الإيمان، والفرائض، والواجبات، والسنن المؤكدات، والفضائل المندوبات. وعلموهم التحذير من المحرمات والمكروهات، فإن

=

84- مسالك الحنفا، ص 475.

85- النفحات الأقدسية في شرح الصلوات الأحمدية الإدريسية لمحمد بهاء الدين البيطار الشامي الميداني، ضبط وتصحيح عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1427 / 2006، ص. 38.

86- مسالك الحنفا، ص 479.

87- النصيحة الصغرى، ص. 267-268.

88- مواهب الرحيم، ص. 207.

89- المصدر نفسه، ص. 207.

لهـم علـيكم حقا. وأكرموهم، وعلموهم الآداب الشرعية، وكل ما يلزمهم مع الله تعالى. وعلمـوا أزواجكـم، وبـناتكم، ومماليككم، فـرائض الغسل، والوضوء، والصلاة، والتيمم، وكـل مـا يجـب علـيهم. وعلمـوهم الآداب، لأن لهـم عليكم حقا شرعيا، و« كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته »[90][91].

وهـذا مـا يجعـل الممارسـة الـصوفية تؤدي وظائف اجتماعية مهمة، مما يستلزم تعمـيمه. ومـن هـذا المـنطلق، يضع الشيخ الأسمر أورادا لكل فئات المجتمع. وهي، من حيث العموم، ثلاثة أوراد: ورد المتجردين، وورد الطلبة والفقهاء، وورد أصحاب الفلاحة والأشغال[92].

90- جزء من حديث، رواه أحمد في (المسند)، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، عن ابن عمر. ورمز إليه السيوطي بالصحة (الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للجلال السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 1، 1410 / 1990، ج. 2، ص. 396، الحديث 6370.

91- النصيحة الصغرى، ص. 269.

92- المصدر نفسه، ص.281-284.